...حلة الثالثة (التدهور)، بأعمار ثلاثة أجيال، وكما مر ذكره، كل ...عمره اربعون سنة وهي كالآتي(٢٣):

...جيل الأول: ما زالوا على خلق البداوة وخشونتها وتوحشها، من ...ظف العيش والبسالة والافتراس والاشتراك في المجد، فلا تزال ...صورة العصبية محفوظة فيهم، فحدهم مرهف وجانبهم ...رهوب والناس لهم مغلوبون.

الجيل الثاني: تتحول حالهم بالملك والترف من البداوة إلى الحضارة، ومن الشظف إلى الترف والخصب، ومن الاشتراك في المجد إلى الانفراد به، وكسل الباقين عن السعي فيه، ومن عز الاستطالة إلى ذل الاستكانة، فتنكسر صورة العصبية بعض الشيء، وتؤنس منهم المهانة والخضوع.

الجيل الثالث: ينسى عهد البداوة والخشونة، كأن لم تكن، ويفقد حلاوة العز والعصبية بما هم فيه من ملكة القهر، ويبلغ فيهم الترف غايته بما يبتغونه من القيم، ونضارة العيش، فيصيرون عيالاً على الدولة، ومن جملة النساء والولدان المحتاجين للمدافعة عنهم، وتسقط العصبية بالجملة وينسون الحماية والمدافعة والمطالبة، فإذا جاء المطالب لهم لم يقاوموا مدافعته.

أن عمر الدولة الذي حدده ابن خلدون، لا يقصد به الدولة كما نفهمها الآن، إنما سلطان الأسرة الحاكمة، لذلك فإن زوال سلطان

الأسرة الحاكمة نتيجة تفكك عصبيتها، ليس له تأثير على حال العمران البشري، لأن الأمر يقتصر على تداول السلطة بين الأسر، أو العصبيات الخاصة التي تخضع إلى العصبية الكبرى التي تجمع هذه العصبيات في إطارها[٢٤]، وهو يقصد الدولة الكلية التي تستند إلى عصبية عامة أو عصبيات متعددة أو عوامل غير العصبية[٢٥].

أما أطوار الدولة التي تتداخل ضمن مراحل عمرها فهي خمسة، وتختلف أحوالها، وتؤثر في أخلاق وأحوال القائمين عليها، فيكتسبون في كل طور خلقاً من أحوال ذلك الطور ولا يكون مثله في الطور الآخر، لأن الخلق تابع بالطبع لمزاج الحال الذي هو فيه وتلك الأطوار هي[٢٦]:

١. الطور الأول: طور الظفر بالبغية (الهدف)، والاستيلاء على الملك وانتزاعه من الدولة واكتساب المجد.

٢. الطور الثاني: طور الاستبداد، والانفراد بالحكم أو الملك من قبل صاحب الدولة وبناء قوة خاصة من الموالي والصنائع لحمايته.

٣. الطور الثالث: طور الفراغ والدعة لتحصيل ثمرات الملك، من مال وتخليد الآثار وبعد الصيت (الشهرة)، وتشييد المباني الحافلة والمصانع والهياكل المرتفعة.

النمساوي (انطونيو كارانا)؛ وفي عام ١٧٢٥ صدر كتابه الجديد (العلم الجديد في الطبيعة المشتركة للأمم)[٤]، الذي يتألف من خمسة أجزاء، اثنين منها تعنى بمسيرة التاريخ الأممي؛ وهي الجزء الأول في الأسس والمبادئ، والثاني في الحكمة الشعرية، والثالث في الكشف عن حقيقة هوميروس، والرابع في مسار تاريخ الأمم، والخامس في عودة الانقلابات وتكرارها عند انبعاث الأمم بعد انحطاطها، ومن الملاحظ إن الجزئين الرابع والخامس، يتناولان مسيرة التاريخ ودور الحضارة فيه، وتكرارها في التاريخ من خلال دورات متعاقبة. لقد آمن فيكو أن مؤسسي الحضارة كانوا أناسا غير مفعمين بالحكمة الخفية (الفلسفة)، بل على العكس من ذلك، هم أناس أغبياء متجردون من كل ثقافة ومن كل إنسانية ومن كل دين، ولكن تساندهم غريزة مبهمة من حب البقاء اقتادتهم رويداً رويداً إلى الحياة المجتمعية[٥].

أن التاريخ الذي لا جدال في أنه من صنع العقلية الإنسانية، يرفضه فيكو، ويرى أن العملية التاريخية بوصفها عملية تمكن الإنسان من ابتكار النظريات الخاصة باللغة والعادات والقوانين والأنظمة الحكومية، هي التي أنشأت وطورت الجماعات الإنسانية وأنظمتها[٦]، وفي هذا الجانب يرى كولنجود[٧] إنه لا يوجد

تعارض بين الجهود المتفرقة التي يقوم بها الأفراد، وبين المشيئة الإلهية المقدسة، التي تربط بين هذه الجهود، فضلا عن عدم وجود ما يشير إلى إن الإنسان الأول قد استطاع أن يتنبأ بما تسفر عنه ما ابتدأ من جهود، أن الخطة المرسومة للتاريخ تصميم إنساني بحت، لكنه لم يتبلور في صورة سابقة للأحداث تستهدف التنفيذ أو التحقيق في سلسلة مراحل تدريجية، لقد خلق الإنسان صرح الحياة الاجتماعية من العدم، ولذا كانت كل صغيرة أو كبيرة في هذا الصرح عملاً من أعمال الإنسان يعرفهُ العقل على حقيقته حق المعرفة[٨].

١. منهجه في فلسفة التاريخ:

تعود شهرة فيكو في حقل التاريخ إلى وضعه قواعد فلسفة التاريخ وقد سبقه في ذلك العلامة العربي أبن خلدون بأكثر من قرنين من الزمان، لقد حدد فيكو منهج فلسفة التاريخ، وأنتقد المناهج القديمة في طريقة تحصيل المعرفة لأنها قصرت المنهج الرياضي على فروع معينة من المعرفة وأهملت التاريخ، قاصدا بذلك المنهج الديكارتي (منهج الشك)، الذي يستند إلى الوعي السابق للتجربة، حين يقول ديكارت (أنا أفكر أذن فأنا موجود)[٩]، أما الوعي عند فيكو فلا يشكل أساسا سليما للمعرفة خارج نطاق

لذلك لا يصلح أساسا للمعرفة العلمية، لأن ما نعرفه على يقين منه هو ما نفعله، إذن الفعل الإنساني وليس الذاتي أو المعرفة النظرية التي تسبق الفعل، هو مبدأ في علم التاريخ(١٠).

وهذا يعني إنه يجب التفرقة بين حقيقة يتم الوصول إليها بالاستنباط الرياضي، وأخرى يتم الوصول إليها بالكشف والاختراع من خلال التجربة كما هو الحال في العلوم الطبيعية، وهذا لا يعني إن التاريخ يتشابه مع العلوم الطبيعة في هذا الجانب، لأن الإنسان يفسر الظاهر الطبيعة، في حين تكون الظاهر التاريخية من صنعه، ثم يفكر فيما يصنع، والمقصود إن الإنسان يصنع التاريخ، ثم يفكر فيه ويهتم بدراسته.

إن دراسة التاريخ عند فيكو تختلف عن دراسة العلوم الطبيعية والرياضية، فالتاريخ من فعل الإنسان، والطبيعة من فعل الله، والإنسان يفسر ما لا يستطيع فعله، ويفعل ويفكر فيما يفعل، والحقيقة في الطبيعة خارجية، وفي التاريخ تتصل بطبيعة الإرادة الإنسانية، لأن المؤرخ إنسان يستطيع أن يستوعب فعل الإنسان الآخر، وإن يفهم حقيقة الأحداث التاريخية التي هي من فعل إرادة الإنسان.